مســـاجلات

جورجياس المصرى

الأســـتاذ محمد مندور

كتب الأستاذ العقاد فى العدد ٤٦٧ من (الرسالة) تحت عنوان « مساجلات » يقول : « نبهت إلي كلمة لأديب يكتب فى (الثقافة) بتوقيع « محمـد مندور » قال فيها عنى بصدد الكلام عن أبى العلاء ورسالة الغفران : « والعقاد يبدأ فيؤكد — فيما يعلم — أن فكرة أبى العلاء فى هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير « لوسيان » فى محاوراته فى الأولمب والهاوية ؛ وهذا قول عجيب يدخل فى سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التى لا حصر لها فى كل ما كتب ، والتى كثيراً ما تدهشنا لجرأتها ، ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسانية : عرفها اليونان قبل لوسيان ، وعرفها العرب قبل أبى العلاء » .

وأنا أحمد الله إذ نبه الأستاذ إلى كلمة محمد مندور هذا ، فالعقاد رجل لديه ما يشغله عن (الثقافة) وعن محمد مندور ، وهو منهمك فى قراءة أمهات كتب الأدب التى وجد فيها أن « فكرة أبى العلاء فى هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان فى محاوراته » ؛ فأنى له بقراءة (الثقافة) ، وما هى بشىء إلى جوار عيون الأدب ؟ ومن هو محمد مندور ، ليقرأ له وهو مأخوذ بسحر لوسيان ؟

و « محمد مندور » يسره أن ينبه العقاد قبل أن يبدأ فى مناقشته إلى تتمة جملته كما هى بالثقافة عدد ١٧٦ « والكل يعلم ما فى أساطير اليونان من وصف لنزول أورفيوس إلى العالم الآخر ليسترد منه زوجه أوريديس؛ والكل يعلم وصف هوميروس لرحلة أوليس ، ووصف فرجيلوس شاعر الأنياذة لرحلة أينوس ، بذلك العالم ، كما نعلم جميعاً أشعار المتصوفة فى أحلام يقظتهم ونومهم ، ومن تلك الرحلات الرائع الجميل كوصف الحارث بن أسد المحاسبي فى « التوهم » الذى نشره المستشرق آبرى وصدر له الأستاذ أحمد بك أمين ؛ وفى عصر مقارب لعصر أبى العلاء كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع المنشورة بكتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » (ج ١ ص ٢١٠) وهى شديدة الشبه برسالة الغفران ؛ ومع ذلك يؤكد العقاد أن فكرة رسالة الغفران لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان »

وهذا فيما أظن كلام لا يستطيع العقاد ولا غير العقاد أن يدفعه ، فهو يؤكد أن أديباً لم يسبق أبا العلاء فى وصف رحلة إلى العالم الآخر غير لوسيان ، ونحن نقول له : بل سبقه هوميروس وفرجيليوس ... و ... فما الرأى إذن ؟ وهل يقبل الأستاذ العقاد — وهو العالم بكل تراث الإنسانية الروحى المقدر لقيمته — أن نمحو من الوجود كل هؤلاء العطاحل ليصح ما أكده ؟ ألا ليتنا نستطيع ذلك لنرضى كبرياء العقاد وإن كان قد وضعه فى غير موضعه .

وبعد فليس يضير العقاد أن يجهل وصف هوميروس أو فرجيلوس لرحلة كهذه ، إذ لو علم العقاد بكل شىء لفقد أهم صفة يتميز بها جميع البشر بله الأدباء منهم وهى صفة الإنسانية ، ونحن جميعاً نجهل أشياء كثيرة ولو أضفنا أعماراً إلى عمرنا ولو بذلنا جهد الرهبان فى التحصيل ، وإنما يضير العقاد ككاتب يجب أن يحترم كرامة العقل أن يصدر فى محاجته للغير عن منهج معيب .

لم يرد العقاد على ما وجهته إليه بل نقل الحديث إلى وجود الجنة والنار قبل أبى العلاء وقبل لوسيان « على نحو ما يرى أن لندن كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها » . وهذه سقطة ما كان يليق برجل كالعقاد أن يلجأ إليها فى كبرياء المتعالى ؛ فوضع الجدل ليس وجود النار والجنة ، بل ولا علم الناس بهما ، بل وصف الرحلة إليهما وفيهما وصفاً أدبيًّا قذيًّا على نحو ما فعل هوميروس وغيره ممن ذكرنا

ولقد كان العقاد يستطيع أن يغالط — كما كان يفعل جورجياس كبير السفسطائيين عند اليونان على نحو أرق من هذا النحو . ألا ليته قال مثلاً إن اللغة كانت موجودة قبل وضع نحوها ، وأن الطبيعة كانت قائمة قبل استنباط قوانينها ، وأن العقل

كان يعمل قبل صياغة المنطق ، وأن المنطق أقدم وأصدق وأنبل من السفسطة . ولو أنه فعل لوجدنا فى مغالطاته جلالاً ، وأما أن « لندن وباريس وبلاد الأفيال » كانت موجودة قبل الرحلات إليها فهذه حقيقة مغالطة تافهة كنت أود أن يترفع عنها العقاد

أسرف العقاد إذن على نفسه وعلى القراء عند ما أكد أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان ، وهذه المسألة لا تقبل الدفع

فلنتركها إذن لما هو أهم وهو منهج العقاد فى التفكير كما يطالعنا من رده وتلك مسألة يضطرنا العقاد إلى أن نثيرها لا بسدد حديثه عن أبى العلاء فحسب بل بوجه عام

سمعت العقاد يوماً يناظر فى الأثر الذى يمكن أن تحدثه الثقافة الأجنبية فينا فيقول : « إن الكتاب الأمريكي لا يمكن أن يجعلنا أمريكيين وإلا لجعلتنا الثقافة الأمريكية أمريكيين » وهذا مثل لكل ما كتب العقاد ، فسبيله دائماً هو « المغالطة » ثم « القياس الفاسد »

ألا تراه كيف ينقل الحديث من الرحلة الأدبية فى العالم الآخر إلى وجود ذلك العالم وتصور الناس له ، وهذه هى « المغالطة » ثم ينتقل إلى قياس وجود العالم الآخر فى الواقع أو فى خيال البشر وجوداً مستقلاً سابقاً على وصف ذلك العالم فى الأدب ، بوجود باريس ولندن وبلاد الأفيال وجودا مستقلاً سابقاً على رحلة المسافرين إلى تلك البلاد وهذا هو « القياس الفاسد »

ووجه الفساد فى كلا القياسين هو انعقاده بين أشياء مادية وأخرى روحية ؛ فالتفاحة ليست كتاباً وإلا لكانت عقولنا معدات ؛ ولندن ليست الجنة ولا باريس النار والسفر إليهما ليس وصفاً أدبياً للعالم الآخر نزوره بخيالنا

وهذه ليست إلا مجرد أمثلة ؛ ففى كل صفحة مما كتب العقاد ، بل فى كل سطر نفس المنهج . وفى الحق أنى لا أعرف عيباً فى التفكير أخطر من هذا .

أما المغالطة فخطرها بين ؛ ومن نافلة القول أن نقف عندها . بقى القياس فاسداً وغير فاسد ؛ ومن الثابت أن المنطق الشكلى كله لا القياس فحسب لا يمكن أن يوصل إلى الكشف عن حقيقة جديدة ، وإنما تعمل الأقيسة فى الحقائق المعروفة ؛ فإذا كان القياس صحيحاً إنتهى إلى إلحام مناظرنا ، ولا أقول إلى إقناعه ، لأن الإقناع إحساس وتسليم قلبي ، وأما الإلحام فانعقاد اللسان أو شلل العقل وهذا هو الجدل . وإذا كان القياس فاسداً فتلك هى السفسطة التى لا تقنع ولا تفحم ولا تليق بالإنسان على أى نحو .

وإنما تكتشف الحقائق بالخيال وبالقلب ، وتلك ملكات لا أحس لها بوجود فيما يكتب العقاد .

أنظر إليه فى رده كيف يقول : « إن الجمع بين المعرى ولوسيان مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه » وتلك لعمرى مقارنة عجيبة ، وأنا لا أرى أصلاً أى شبه بين أبى العلاء ولوسيان ، بل ولا بين أبى العلاء وأى كاتب آخر ؛ وذلك لإيمانى بأن النفوس لا يمكن أن تتشابه أصالتها ؛ وقد بينت ذلك فى الثقافة ، ولن أعود إليه .

واتجاه العقاد الخاطئ واضح فى كل مقارناته . والذى أفهمه من المقارنة هى أن تكون إما « مقارنة تأثر » نبغى منها إيضاح أخذ كاتب عن آخر ، والمنهج الصحيح فى هذا هو أن نثبت قراءة هذا الكاتب لذاك وتأثره به تاريخياً ، إذ لا يكفى مجرد التوافق على فكرة أو صورة ؛ والجمع بين أبى العلاء ولوسيان لا يمكن أن يكون على هذا النحو . أو « مقارنة فهم » وذلك بأن نجمع بين كاتب وآخر لنفهم كليهما على ضوء ما اختلفا فيه تبعاً لاختلاف منحاهما النفسى رغم وحدة الموضوع الذى يتحادثان فيه أو المصدر الذى يأخذان عنه . وهذا ما لم يفعله العقاد ؛ وإنما فعل وفعل دائماً أن حاول التماس أوجه شبه بين أناس وأشياء من السذاجة أن نجمع بينها ، فهو طوراً يقول بأن أبا العلاء قد كان اشتراكياً ، وطوراً أنه قد أخذ بمبدأ النشوء والارتقاء وبقاء الأصلح « الفصول » . وهذه محاولات باطلة ؛ فأبو العلاء لم يحلم بشىء من هذا ؛ ومذاهب الاشتراكية والنشوء غير بينة فى الشعر أو جملة منثورة . وإنه لتعسف باطل أن يزج العقاد بذلك

الـكلمات الضخمة فى معرض الحـديث عن شاعر مسكين كأبى العلاء

وشاء العقاد إلا أن يختم حديثه بتذكيرنا بقوله عن رسالة الغفران : « أى شيء من هذه الأشياء لم يكن من قبل ذلك معروفاً موصوفاً ؟ أى خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن فى عصره معهوداً للناس مألوفاً ؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان ... »

وهذا كلام لا علاقة له أصلاً بموضع المناقشة فهو لا يدل فى شيء على « أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان » وإنما يدل على أن فكرة الجنة وأوصاف الجنة كانت معروفة عند الناس كما وردت فى الديانات والكتب المقدسة . وأما أنها تستخدم فى الأدب قبل أبى العلاء إلا عند لوسيان فهذا ما لم يرد عليه العقاد

ثم إن هذه الجملة فى ذاتها تأكيد آخر من تأكيدات العقاد الغير مقبولة ، فأبو العلاء لم يعرف الجنة كما كان الناس يعرفونها أو يتصورونها ؛ والجانب الهام من جنته هو دنيانا أو على الأصح دنيا العرب ، إذ أنه قد نقل الدنيا إلى الآخرة وقد جمعت تلك الدنيا بتاريخها الطويل فى صعيد واحد ، فهناك ترى الهذلى يحلب ناقته ، وابن القارح محمولا زقفونة على السراط ، وابن عدى بصيد ، والأعشى فى عينه حور ، وكل أولئك أشياء لم يكن يعرفها أحد عن الجنة بل ولا يتصورها بمجرد تصور ، وما هى من الجنة كما وصفها القرآن فى شيء

ويضيف العقاد تذكيرنا بقوله : « إنها رحلة قديمة ولـكن أبا العلاء أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذى ابتدعها أول مرة ... » وموضع البحث هو كما قلت وأكرر أن نعرف مدى قدم تلك الرحلة ومن سبقه إليها ، أهو لوسيان فقط أم لوسيان وغير لوسيان ممن ذكرنا

والآن لم يبق لدى إلا أن أترك للقارئ الحكم على طريقة الأستاذ العقاد فى توجيه الخطاب من (لا يا شيخ !) إلى أمثال ذلك مما أمسك قلمى عن الرد بمثله ، فهذا أمر سهل ميسور لكل إنسان .

محمد منصور

مرســــلات ...

مالي !

أعلنت الصحف ذات يوم أنّ فلاناً سيتحدث ساعة كذا من المساء حديثاً علميًّا ، وفلان هذا رئيس مرجوّ مرهوب ، يمتد سلطانه إلى الأقاليم ، حيث ينبث له فى أرجائها عمال ومرءوسون ... فحدثنى صديق من أصدقائى أنّ كثيراً من هؤلاء المرءوسين قد فرغوا لهذا الحديث ، واحتشدوا له حول « المذياع » ثُبات ثُبات : منهم من ينشد العلم ، ومنهم من يتزود للملق والنفاق ، وأزف الموعد ... فلو ترى إذ خشعت الأصوات ، وأرهفت الأسماع ، والليل ساجٍ لا تسمع فيه إلا دقات « الاستراحة » تنبعث متقطعة من « المذياع » ، كأنها دقات قلب مضطرب على موعد للقاء ... ثم نطق المذيع :

« سيداتى ، سادتى : لم يتمكن حضرة الأستاذ (...) من الحضور ، وسنذيع عليكم بعض الأسطوانات ! »

ورجّع المذياع بعد ذلك رنيم « ليلى » وشدو « أم كلثوم » حتى انقضى وقت الحديث !

وزرت هذا الرئيس بعد يومين فى مكتبه لشأن من الشئون ، وكنت عرفت سر تخلفه عن موعده ، فما راعنى إلا كتاب يلقيه إلىّ ويطلب منى أن أقرأه ، فإذا هو من شخصين مرءوسين له فى بلد قريب من القاهرة ؛ وإذا هما يقولان فيه : « أما والله لقد أجدت فى حديثك ليلة كذا إجادة ما نحسب أن أحداً وفق إلى مثلها ؛ ولقد كنا نستمع إليك فى جمع من أصحابنا مَنْهُوِّيْن بك ، والقوم من حولنا فى نشوة ... فلما انتهى حديثك لم يبق أحد إلا حيَّاك على البعد ودعا لك ، ثم انثنوا إلينا يلقُّوننا عنك التهنئات ... فهكذا فلتكن الأحاديث ! »

قلت وقد أخذتنى الدهشة : أىّ حديث يريدان ؟ قال : هذان شخصان مَلِقان تعوّدا أن يلقيانى فى كل مناسبة بمثل ما ترى ، وقد حسبا أنّى ألقيت الحديث !

محمد محمد المدنى